العرب لأنه لا يمكن رجلا فرداً مثل النبي محمد عليه السلام أن ينقل أمة كاملة من العدم إلى الوجود ومن الظلمات إلى النور ، ومن العبودية إلى السيادة القاهرة ، كل هذا لا يمكن أن يقع من دون أن تكون تلك الأمة قد استعدت فى أعماقها وفى ضمائرها وفى عقلها بحيث استطاع رجل واحـــد أن يكون منها أمة متحدة وكانت قبائل متفرقة ، وأن ينظم علومها وآدابها بحيث تستطيع أن تفرض سيادتها وتجاربها وعلومها على أجزاء مهمة من آسيا وأفريقية وأوربا فى زمن وجيز »[1] .

ونحن لا نريد أن نبالغ فى خطورة الدرجة التى كان عليها العرب فى أميتهم ، وإن كان مما لا شك فيه أن تلك الأمية كانت قائمة والرسول نفسه كان أمياً ، وقد مر بنا قول الجاحظ أنهم : « كانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون » ، وقد تبين لنا مما سبق أنهم لم يحفظوا عن طريق الكتابة شيئاً يستحق الذكر من أدبهم وإنما حفظوه عن طريق الرواية ، أما أن تكون لهم تلك النهضة الشاملة فى العلم والأدب والسياسة والأخلاق والاجتماع والفلسفة ، فهذا إغراق فى المغالاة ، فليست الأمة فى حاجة إلى مثل تلك النهضة الكبرى لتكون شرطاً لتقبل الدين الجديد أو الاستعداد للنهوض به ، وإذا كان لا بد من أن تكون الأمة قد استعدت فى أعماقها وفى ضمائرها وفى عقولها لكل ذلك ، فلماذا لا تكون البعثة قد هيأت لهذا الاستعداد ووعته وتمته ، ونحن لا نكاد نرى تلك النهضة الشاملة التى يصورها الدكتور زكى مبارك إلا بعد فترة من الزمن أعقبت الاستقرار بعد عصر الفتوح الإسلامية ، فكيف يمكن لها أن تظهر في صورة كهذه قبل الإسلام ؟ ولماذا نهدر قدر الاستعدادات الفطرية التى ليس من الضرورى أن تتخذ شكل هذه النهضة ؟ فالاستعداد فى الأعماق والضمائر والعقول كان من صنع الإسلام نفسه الذى صار ديناً ودولة وحضارة ، ومع هذا فقد احتاج إلى فترة ليكون دولة وإلى فترة أطول ليكون

---

(١) النثر الفنى جـ ١ – ص ٥٥ — ٥٦ .